تفسير

الشعراوي

٦٦

أخبار اليوم

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة في العمل ؛ حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛ لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجِد فائض من مال للزكاة.

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذى يكسبه الإنسان فى الدنيا مال الإنسان ، حتى يعمل كل منا على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله. وعندما يزيد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لاتحب أن يفارقك المال الزائد، وفى الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال فى خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك.

إذن: فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لتحسُنَ آخرتك. والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليَعيش. فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل.

وعلى سبيل المثال: إن عثر الإنسان على كنز فزكاته عشرون فى المائة [1] ، وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هى عشرة فى المائة [2] ، أما إذا كان رزق الإنسان من عمل يومى كالتجارة ، فالزكاة هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان فى عمله قلَّتْ الزكاة . وكلما قَلَّ عمل الإنسان فيما يكسب ؛ زادت الزكاة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل . والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك.

(١) زكاة الكنز: هو ما يسمى زكاة الركاز، وقد قال ﷺ: « وفى الركاز الخمس» أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٥٥) ومسلم (١٧١٠) عن أبى هريرة. والركاز هو ما ركز فى باطن الأرض من معادن وأحجار وغير ذلك.

(٢) فى هذا تفصيل ، فالقدر الذى يجب إخراجه يختلف باختلاف السقى، فما سقى بدون استعمال آلة كمطر وغيره ففيه عشر الخارج (أي ١٠٪) أما إن سقي بآلة أو بماء مشتري، ففيه نصف العشر (أى ٥٪)، ودليل هذا قول رسول الله ﷺ: « فيما سقت السماء والعيون، أو كان عثريا العشر، وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه البخارى (١٤٨٣) عن ابن عمر.

فالذى يبنى عمارة - مثلاً - إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

إذن: فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن فى بال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذى يأتى بالمال ، وينسون أن الله هو الذى ييسره لهم، ويُمكّنُهم منه. ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتى آفات تتلف الزرع وتُضَيّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْى ؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شىء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها.

وسبحانه وتعالى حين يقضى بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة أخرى فيبارك فى زرع فى بلد آخر أو مكان آخر ، فإذا هلك محصول القمح فى دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشترى هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التى جاءها محصول وفير إلى الدول التى هلك فيها الزرع كمعونة أو إغاثة ، وبذلك تتعادل سبل الحياة.

ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطى القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى. فالقدرة المطلقة هى لله سبحانه وتعالى ، وسبحانه يُمرِّر بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِين إنساناً آخر فى حَمْل شىء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله.

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك ؛ وبين أن تهبَ الغير هذه القوة. فالبشر يعطى أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء.

المال – إذن –لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال. إذن : فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم. ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال : أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب فى أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقى الأيام. أما إذا كان المصروف فى كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم فى كل يوم.

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما فى صدور الناس ؛ ولذلك يُلفت القادر إلى ضرورة أن يُخرِجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب.

ونحن نعيش فى عالم أغيار ، ومن الممكن أن يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً. ولذلك نجد القادر يمتلىء بالقلق إن رأى عاجزاً. وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راضٍ ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة]

إذن: فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التى قد تصيبه، وتُزكِّى الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نمواً وزيادة وإن بدت فى ظاهرها على أنها نقص . فالمائة جنيه [1] تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهى عكس الربا الذى قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ،

(١) هذا مثال فقط، وليس معناه أن من معه مائة جنيه تجب فيها الزكاة، فزكاة المال لها نصاب محدد قدره العلماء بما يعادل ثمن ٨٥ جراماً من الذهب ويحول عليها الحول.

ولكنه يمحق كل خير ، وظاهر الزكاة أنها نقص ، ولكنها فى حقيقتها نماء . والنماء أن يترقى الشىء فى مراتب الكمال ؛ فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها ؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، قصير . ولا بد أن يأتى يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . فى هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت فى سبيل الله ، أى : أن ما أنفقت هو ما يبقى لك فى عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه . وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله ﷺ : « يقول ابن آدم : مالى مالى . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ »[1]

إذن : فالذى يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود فى الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال - إذا أراد أن يبقيه - فلينفقه فى الصدقة .

ولنا الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضى الله عنها : « تصدقى بلحمها ». وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقَتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٢٩٥٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٢٣٨) عن عبد الله بن الشخير.

والسلام . وعندما عاد رسول الله ﷺ ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : « بل قولي أبقيتها كلها إلا كتفها »[1] .

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقى . وما أبقته لهما هو الذى سيفنى . وهكذا سمى رسول الله ﷺ الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذى يحب صحبة ماله فى الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج ، ليبارك الله له فى الدنيا ، ويجزيه خير الثواب فى الآخرة . وقد سأل رجل الإمام عليا رضى الله عنه : أريد أن أعرف : هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ . قال الإمام على كرم الله وجهه : الجواب عندك أنت ، لا عندى ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؛ أيهما تحب ؟ إن كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطى آخرتك شيئاً .

ونقول للذى يحب المال : اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هى المقياس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن لك خيراً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء فى موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

---

(١) حديث صحيح. أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى (٢٤٧٠) وقال: هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبى ﷺ: « ما بقى منها ؟ » قالت: ما بقى منها إلا كتفها. قال: « بقى كلها غير كتفها».

وأما الحكمة فيدير بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غنى وفقير . وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط فى الدنيا ؛ لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قضاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فنبغ كل واحد منا فى شىء ؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقى ، وغيرى يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقى . فأكون فى حاجة إلى عمل غيرى ، وغيرى يحتاج عملى ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .

إذن: فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخَلق بقدر ما تتطلب الخلافة فى الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا: إن مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة فى الرزق وغير ذلك.

إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ تجد أن مجموع كل إنسان فى النهاية يتساوى مع مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء. ولكن إن عادت نعمة القادر الغنى على من لا نعمة عنده ، فهذا يجعل العاجز الفقير مُحِباً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِمَ الغنى

القوة ، حُرم العاجز الفقير من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطى الغنى للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله فى تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها .

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغنى ، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى أن يقتله أو يتآمر على قتله .

إذن : فالزكاة فى المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها . وهى ضرورة من ضروريات الحياة . ولذلك رأينا القادرين فى المجتمعات التى لا تؤمن بدين وهم يتطوعون لإقامة المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك تجد فى معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف ، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم .

على أن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ معناه : أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء ، والذى فرضها هو الحق سبحانه بقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرور عن المجتمع ، ولكن هذا لايحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول : لكى تأمنوا شرهم لابد أن نعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر .

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتى إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته

فى الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء. ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع.

وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها : « السورة الحافرة » ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه - ولله المثل الأعلى - فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير.

فقد قال الحق : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي ..(٤٩)﴾ [التوبة]

وقال عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .. (٧٥)﴾ [التوبة]

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨)﴾ [التوبة]

ولذلك يسمونها " مَنَاهِم التوبة ". وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول:

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يارب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

وهنا يقول الحق سبحانه [(١)] :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبى بنفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء . والضعفاء - كما نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم . وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً ، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل : أبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ... (٢٧) ﴾ [هود]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣١١٧/٤) : « هذه الآية نزلت فى عتاب بن قشير ، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نبتل بن الحارث . قاله ابن إسحاق » .

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة، أما قبل الرسالة فكان فى نظر الجميع هو: الأمين والصادق والمؤتمن.

ومن العجيب أنهم، بعد أن نزل الوحى ، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً ﷺ. فإذا كان هناك شىء ثمين عند الكافرين المعارضين ، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم فى أخلاقه ﷺ . ورغم ذلك كانوا فى غيظ وكَمَدٍ ؛ لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد ﷺ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم [1]. ورد الحق سبحانه عليهم:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿٣٢﴾ ﴾

[الزخرف]

وفى هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم فى اختيار من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار . وهو الذى قسم بين العباد معيشتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

(١) القريتان هنا : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ».

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر فى المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعى أن يكون للنبى أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه فى ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له : لا تنزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثّل إيذاء المنافقين له ﷺ فى عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

وللإنسان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هى التى يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمى الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمى الرجل

الذى يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمى اللص الذى يتعدَّى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلقه ، فيقول:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطتنا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

وإذا أُطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هى العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف نفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يُصدِّق كل شىء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يمحص القول الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامية « فلان ودِنى» أى : يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدى أهل الأرض ، إذن: فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا

أخذنا كلامهم فى أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحى . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاو له ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله فى حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التى استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض.

فإذا كان المنافقون قد قالوا : (هُوَ أُذُنٌ) فقد قال سبحانه : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم.

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفى اللغة ما يسمونه "القول بالموجب" ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلْتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كاَهلى [1] بأياديك ، أى أن أفضالك علىَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : "أنا طولت عليك" ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت علىَّ ، أى : أعطيتنى نعمة بأنك أسعدتنى بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال.

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم فى كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به . وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من

(١) الكاهل : هو ما بين كتفى الإنسان .

النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه ﷺ ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ؛ لأن "أُذُن" عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التى أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمحيص والاختيار. لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطبَّقه ، وما سمعه من الناس؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه . إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتى من رسالته إلا الخير لمن اتبعه.

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار. فكان رسول الله ﷺ لايفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء.

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد فى سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً ؛

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اهتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: للبشرية كلها.

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه في اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب" ، أي : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا :

﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرِج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرِج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم :﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أي : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتي الحارس لسجين يشعر

بظمأ شديد ويُلِحُّ فى طلب كوب ماء . فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء. وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله ﷺ "أُذُن" ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :

﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم.

إذن: فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه. ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا. ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وبين قوله عز وجل :﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء فى قوله : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام فى قوله : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أى : يصدق بوجوده. والمنافقون كفرة بالله ، ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين. أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم فى ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة فى ذلك ؛ لأن أحداً لن

يصدقه . ولكن أراد ﷺ أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷺ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى : صدَّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أى صدقتهم لأنهم مؤمنون.

ومادة "آمن" تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتى مرة لازمة ومرة متعدية. مثلما تقول : "آمنت الطريق" أى : اطمأننت إلى أنه لن يصيبنى فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤) ﴾ [يوسف]

أى : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخى يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهى التى يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ... (٤) ﴾ [قريش]

والخوف متعدد فى أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه فى الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة.

وقوله تعالى : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات، وإيمان بالمنهج ، وإيمان يسع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثانى. وقوله سبحانه ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : "أمتى أمتى". [1] وهو رحمة لهم فى الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذى يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتى بالخير ، والرحمة إنما تأتى باتقاء الضرر.

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢)﴾ [الإسراء]

الشفاء يعنى أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتى المرض ، فكأن رسول الله ﷺ يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر فى الدنيا ولا نار فى الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم فى جهنم .

(١) حديث الشفاعة حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٤) من حديث أبى هريرة أنه ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد . ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله ﷺ من المنافقين فى قلوبهم وفيما بينهم فى مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون فى الصدقات ، ويقولون : إنه أُذُنٌ ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتى الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ "يحلفون" ، ولم ترد مادة "يحلف" فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم جاءت "حلاف" ، حتى إن سورة التوبة سميت "سورة يحلف" [(١)] ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ وفى هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

(١)هذه السورة لها أسماء كثيرة فهى : براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين . وقال حذيفة : هى سورة العذاب . وقال ابن عمر : كنا ندعوها المشقشقة . وقال الحارث بن يزيد : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها : المسورة ، ويقال لها : البحوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٩) .

وأيضاً يقول الحق :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ... ﴿٩٥﴾ ﴾ [التوبة]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ،أى فى المستقبل ، أى : أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكننا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة "حلف" هى القسم أو اليمين . وحين نتمعن فى القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة :

﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة]

وما دامت هناك كفارة يمين ؛ يكون الحلف كذباً ؛ لأن الذى يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل "**حلف**" فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسم الكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ، وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أى : أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ إذن : فهم يحلفون لترضَوْا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو

لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرعى الله فى كل معاملة له مع البشر ؛ ويبتغى رضاه ويخاف من غضبه ، ذلك هو المؤمن الحق.

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ وكان القياس اللغوى على حسب كلام البشر أن يقول: والله ورسوله أحق أن ترضوهما. وشاء الحق أن يأتى بها ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتى بالقرآن من عنده ، ولكنه وحى من عند الله . وإرضاء الرسول هو اتباع المنهج الذى فيه رضا الله . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ... (١٠)﴾ [الفتح]

ويقول سبحانه:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... (٣١)﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... (٨٠)﴾ [النساء]

إذن: فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضى الله يُرضى الرسول ﷺ ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول [1].

(١) وقد جاء هذا فى حديث متفق عليه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله » أخرجه البخارى (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) .

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، فى أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إنى أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . فقال له رسول الله : « وقعت على الخير »[1] . انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذى يثنى على رجل يقول أمامه : إنى لا أتوب إلى محمد ، وإنما أتوب إلى الله .

وقول الحق سبحانه : ﴿ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً .

إذن : فنحن لا نطلب الرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله . ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلِّغ عنه رسوله ﷺ رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ولم يقل يرضوهما[2] .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

(١) عن الأسود بن سريع أن النبى ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال النبى ﷺ : « عرف الحق لأهله » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٣٥) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٩٩) « وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح » وقد ضعف الحافظ العراقى إسناد هذا الحديث فى تخريجه للإحياء (١/ ٢٢٠) .

(٢) لأهل اللغة هنا تقديرات كثيرة لتوجيه إفراد الضمير هنا ، ذكر منها القرطبى ثلاثة تقديرات ثم قال : « وقيل : إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه ، ألا ترى أنه قال ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴾ [النساء : ٨٠] . وكان الربيع بن خيثم إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : حرف وأيما حرف . فوِّض إليه فلا يأمرنا إلا بخير » . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١١٩) .

إذا سمعت ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم . فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحادث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتخلُّف هذا الإنسان عن العلم.

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً. وسبق أن قلنا: إن الاستفهام فيه نفى ، والهمزة همزة استفهام. ولم تأت للنفى ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفى يكون استنكاراً . فإن قلت لإنسان : ألم أكرمك ؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك.

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ ما معنى يحادد ؟ نجد فى الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذى يفصل بين حق وحق ويسمونها حداً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله فى جانب وهم فى جانب ، وبذلك لا يعيشون فى معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطبقون منهجه. بل يجعلون حداً بينهم وبين ما أمر به الله .

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا :﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعنى : يعادى ، وقالوا : بمعنى يشاقق ؛ أى : يجعل نفسه فى شق والله ورسوله ودينه فى شق آخر . أو : يحارب دين الله فيكون هو فى وجهة ودين الله

في وجهة أخرى [١] . وهناك علاقة بين كلمة "يحارب" وكلمة "حد" ، فحدُّ السيف هو الجزء القاطع منه الذى يفصل أى شيء يقطعه إلى جزءين ، فكأن الذى يحادد هو من يحارب منهج الله ورسوله . فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليجعل خلق الله يكفرون أيضاً .

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً فى جانب الإيمان ، وألا يقيموا حداً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أى : أن كل حكم قد وضع ليحدد حداً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر .

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهى ؛ لأن منهج الدين كله فى "افعل" و "لاتفعل" ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ...(١٨٧) ﴾ [البقرة]

ويقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللفظين ﴿ تَعْتَدُوهَا ﴾ و﴿ تَقْرَبُوهَا ﴾ . ونقول : إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهٍ فلا تقترب من المنهى عنه .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال :

﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ... (١٩) ﴾ [الأعراف]

---

(١) وقد جمع ابن كثير هذه المعانى كلها فى تفسيره للآية فقال : « أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد » . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٦) .

ويذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمار الجنة ، ولكنه أمر ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تغريهما رائحتها ، وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أى : لا نقرب أى مكان فيه خمر [(١)] ؛ لأن وجود الإنسان فى مكان فيه خمر قد يوحى إليه بتناولها . وقد يجد من الجالسين من يحاول إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يقى النفس المؤمنة من أن تغرى بالمعصية فتقع فيها .

ويقول سبحانه فى أدب الاعتكاف :

﴿ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

المنهى عنه هنا هو المباشرة ، أى : إن تواجدت الزوجة مع زوجها فى المسجد ، فليس فى هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج [(٢)] ، ثم

(١) وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٩٧) وأبو داود فى سننه (٣٦٧٤) والحاكم فى مستدركه شاهداً وقال : ولم يخرجاه . والطبرانى فى الصغير (١/٢٦٦) .

(٢) « الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً فى مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه » انظر تفسير ابن كثير (١/ ٢٢٤) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال :

﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧) ﴾ [البقرة]

إذن : ففيما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ؛ مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أى : لا تكن أنت والشيء الذى نهى الله عنه فى مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان ؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها .

أما فى الأوامر ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ . وعلى سبيل المثال : إن نشأ خلاف بين الزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

إذن : ففى الأوامر يقول الحق : ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾.

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ينذر الحق سبحانه وتعالى الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ والإنذار هنا يتمثل فى أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الجسدى فقط ، ولكنه عذاب فيه خزى وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك

فالعذاب الذى يعدهم الله به فى الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزى وهوان . ويتمثل الخزى فى أن المتكبر فى الدنيا يأتى إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفى خزياً أن يكون فى النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم فى الدنيا يعيشون فى نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة .

ثم يفضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال ؛ يقال لمن يسافر فى طريق محفوف بالأخطار : خذ حذرك وأنت تسير فى هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع الطرق . إذن : فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تتنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لتنزول هذه السورة ؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه فى نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما فى نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يخشون أن يخرج ما فى بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب - كما نعلم - محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضى أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتى فى المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن فى القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث فى الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب فى القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾

[القصص]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضى ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود]

وكشف الله سبحانه وتعالى - أيضاً - لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل ؛ فقال :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة [١] ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً قال الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا ؟ [٢]

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت يا ربى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

أى : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ

(١) قال الزركشى : « السين هنا للاستمرار ؛ لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم : (ما ولاهم) ، فجاءت السين إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال » . انظر : البرهان فى علوم القرآن (٤/ ٢٨٠) .

(٢)ذكر ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/ ٢٦٦) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ قال: قال عمر: أى جمع يهزم ؟ أى جمع يطلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ .

سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث فى أعماق النفس . وما يدور فى صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سرّك الذاتى مفضوح عند الله ، والمثال على هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... (٨) ﴾ [المجادلة]

هم قالوا فى أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ عما قالوه فى أنفسهم وأعلنوا أنه كذب . ولكنهم لم يُكذِّبوا رسول الله فيما أبلغ عن الله . وهذا يدلنا أيضاً على أن المنافقين كانوا فى حذر ، وكان يغلب على ظنهم صدق رسول الله .

والمثال هو قول الحق هنا : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ [التوبة]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعى أن نتكلم حتى لا يُنزل فينا قرآناً ، فالحق يُبلِّغ رسوله أن يرد عليهم: ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾ [التوبة]

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله: هل تناولتم الإسلام بسوء أو عيب فى مجالسكم ، فسوف يقولون : إن كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له[(١)] .

والخوض أن تُدخلَ نفسك فى سائل ، مثل الذى يخوض فى الماء أو يخوض فى الطينَ ، وقد أطلق على كلٍّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض فى الباطل ، أى: أن المسألة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب.

ويقول الله لرسوله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى: إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب ؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، قل : أليس عندكم إلا الاستهزاء بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت ؟ فهل فى هذه المسائل خوض ولعب ؟

ثم يعطيهم الله الحكم:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعنى: أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم ؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان.

---

(١) وذلك أن رجلاً من المنافقين فى غزوة تبوك قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عناء الطريق. انظر: أسباب النزول -للواحدى ص ١٤٤ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إن نَّعفُ عن طَائفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائفَةً بأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه - جَلَّ وعلا - لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما في نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التي ستتوب توبة صادقة ، والتي لم تشترك في هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْا على نفاقهم وإجرامهم - والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أي قطعتها ، وسمي إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل - أي الذين قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۢ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى:

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ... ﴿١١﴾﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ... ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]

أما باقى الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث فى الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السَّتْر فى الذكورة . ولكنه كان لابد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . ولذلك كان لابد من النص على المنافقات .

وقول الحق سبحانه : ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر فى الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الله خصالهم فى قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون فى سبيل الله إذا طُلبَ منهم الإنفاق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أى أهملهم ، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... (١٠) ﴾ [البقرة]

فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً .

ثم يعطى الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة « منافق » - كما نعرف - مأخوذة من نفقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن فى الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً فى الأرض ؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثانى، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛وهو مأخوذ من «فسقت الرطب»

أى : انفصلت القشرة عن الثمرة. والقشرة - كما نعلم - مخلوقة لصيانة الثمرة ؛ فإذا فسقت عنها تلفت الثمرة . والإنسان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتى الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان تستخدم كلمة « وَعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس . وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلى ويشوى وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار ، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴿١٤٥﴾ ﴾

[النساء]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى، وقد يسأل سائل: كيف يكون ذلك؟

ونقول: إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة؛ فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فآمناه، ويستطيع أن يلحق بنا شرّاً رهيباً؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا، وقد تكون طعنته قاتلة.

والعدو الخفى - كما نعلم - شر من العدو الظاهر؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى، وهو يعرف ما فى نفسى، ويعرف كل تحركاتى، ويستطيع أن يغدر بى فى أى وقت دون أن أكون منتبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا، فكيدهم يفشل؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم. أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم، فهم يُجنِّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا فى هذا الدين، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم، هى القاتلة وهى المؤثرة.

هنا نلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً فى النار إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم.

في قـــوله تعـــالى : ﴿إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾ [النساء]

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب]

وقوله جل جلاله : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

و لكنه ذكر الخلود فى الجنة أبداً مرات كثيرة [١] .

ونقـول: إن الجنة هى بُشْـرى النعـيم للمـؤمنين . ويريد الحق سبحـانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذى ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهى دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود فى النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا فى ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت فى النار ؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدى . وفى نفس الوقت تأبى رحمته سبحـانه وتعالى أن يكون ذلك فى كل آية تُذكَر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، عَلَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود]

---

(١) ذكر الخلود فى الجنة أبداً فى ٨ مواضع من القرآن الكريم [النساء: ٥٧ ، ١٢٢] ، [المائدة: ١١٩] ، [التوبة: ١٢ ، ١٠٠] ، [التغابن: ٩] ، [الطلاق: ١١] ، [البينة: ٨] .

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتى فى هذه الآيات ويستثنى ويقول: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فيُعذَّب فى النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قَدْر سيئاته . والثانى يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن: فالمؤمن العاصى لا يخلد فى النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأنه لن يبقى فى النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده فى النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة.

أما الكافر والمنافق فهما خالدان فى النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصى. وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق.

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أى منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذى غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصى ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه.

إذن : فالمؤمن العاصى خلوده فى النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً. وكذلك يفتقد الخلود فى الجنة فور انتهاء لحظة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إلاَّ ما شَاءَ رَبُّكَ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة (١) .

وقول الحق عن خلود المنافقين في النار : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتي إنسان قوى ويقول لك : اتركه لي ، أنا وحدى كفيل أن أؤدبه ، فتقول : هذا حسبه ، أى يكفيه هذا ؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أى : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كافٍ جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق : ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ في الدنيا هو عذاب مقيم في الآخرة .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٠) : « هذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة » . وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصارى معنى جميلاً في كتابه : « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » ص ١٩٥ فقال : « هو استثناء من الخلود في عذاب أهل النار ، ومن الخلود في نعيم أهل الجنة ؛ لأن أهل النار لا يخلدون في عذابها وحده ، بل يعذبون بالزمهرير ، وبأنواع أخر من العذاب ، وبما هو أشد من ذلك ، وهو سخط الله عليهم . وأهل الجنة لا يخلدون في نعيمها وحده ، بل ينعمون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك » .

كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعانى ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوانَ هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التى تصيبه بعذاب نفسى أكثر من العذاب البدنى ، فقد تأتى لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى: عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار.

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه:

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التى صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله ﷺ. ولنقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾
[الفجر]

ونحن لم نشهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ التى وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التى لم يصل إليها أحد. وقد يتساءل بعض الناس: أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ من حضارات اليوم؟. ونقول: إن هناك أسراراً لله فى كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعْطِها لأحد حتى الآن.

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم فى القرآن بقوله: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾. والأهرامات أوتاد، والمسلات أوتاد، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن، مثل سر التحنيط وبناء الأهرام؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التى ارتفعت ويمسك بعضها البعض، دون أية مواد مثبتة، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنيـاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أى مواد

مثبتة ، ومع ذلك فهؤلاء الفراعنة لم يستطيعوا أن يسودوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن نكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها. وإذا بالعالم كله يأتى ليشاهد حضارة الفراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقى فى العلم . فإذا كانت هذه هى حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التى لم يُخْلَق مثلها فى البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة فى باطن الأرض. ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها فى زمن قادم يزداد فيه بُعْد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كلما تقدم فى الحضارة ابتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن فى الكون ؛ مسيطر عليه ؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه وتعالى عن حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوى شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم.

وإن سأل سائل : أين هى حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ؟ نقول له : إنها فى وادى الأحقاف [1] والهبّة الواحدة من الرياح فى هذا الوادى تستر قافلة بأكملها ؛ أى إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تدارى الطريق وحده ؛ ولكنها تدارى القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذى كانت تقطنه ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ فأخفتْ حضارتهم ؟ لابد إذن من حفريات على مستوى عميق جدّاً لنعثر على تلك الحضارة ؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تتراكم فوق

(١) الأحقاف : هى صحراء مترامية الأطراف بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها . والأحقاف فى اللغة هى: ما اعوج من الرمال واستطال .

الآثار . بل إننا نرى البيوت القديمة فى القـرى ، لابد أن تـنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطـريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية فى وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير فى أزمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحْكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث مغطى بطبقة من التراب ، فإن غبْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا بالنسبة لبيت محكم الإغْلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ أى : أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضاريّـاً كان ضعيفاً .

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل : كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكتشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها ؛ لأنك إذا جئ ت بمائة شخص ووضعتهم فى حجرة ، يقال عنهم : « كثير » . فإذا أخذ ت كل واحد منهم ووضعته فى مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً . وكان العالم فى الماضى مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم فى حيزهم الذى يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التى كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ، أى أن نصيب الفرد كان أكبر ، وكذلك الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ والخلاق هو النصيب أو الحظ الذى يصيب الإنسان من أى نعمة ، ويقول سبحانه :

﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) ﴾ [البقرة]

أى : ليس له فى الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولم يكن فى بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم فى الدنيا ، ولكن من يعمل وفى باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره فى الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين فى الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم فى بعض البلاد يُلْقون بالفائض فى البحر ، بينما نجد المسلمين يعيشون فى حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التى أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب" و "عطاء للإله" . فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذى خلق وربَّى ، وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط . لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقى لها التقاوى ويرعاها ، لا تفرق فى ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطى كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبادة يجزى به الإنسان فى الآخرة ، والذى

يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستغل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم فى الآخرة.

والأسباب فى الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الطائع والعاصى ؛ لأن هذا عطاء ربوبية. من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]

لماذا ؟ لأنك عملت للدنيا وحدها.. وكنت تعمل ليقال إنك مخترع أو مكتشف.. أو لتحصل على الأموال أو الأوسمة.. أو النفوذ والجاه فى الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفى بالك الله .

وبعض الناس يأتى ليقول لك: هل الذى اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب فى النار ؟

نقول له : نعم ؛ لأنه فعل هذا وليس فى باله الله .. وإنما فعله وفى باله الحصول على المجد أو المال أو النفوذ فى الأرض ؛ ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس فى المدارس ، وأعطوه النياشين وأطلقوا اسمه على الشوارع والميادين.

فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره فى الدنيا ، ولكن الذى عمل وفى باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ فى الآخرة من المسبب مباشرة ؟ فالإنسان قد ارتقى حضاريّاً ، حتى إنك الآن فى بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطى لك القهوة أو الشاى ،

وآخر يعطيك الطعام . . نقول : إن هذا كله متاع الأسباب ، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر ، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام ، والآلة أوصلته إليك .

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجيّاً فلن يأتى اليوم الذى يجعل الشىء يخطر ببالك فتجده أمامك . . ولكنك فى الجنة بمجرد أن يخطر الشىء على بالك تجده أمامك [(١)] ؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء مسبب .

فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب فى الدنيا ، ولكن فى الآخرة يأتى لك الشىء بلا عمل ، مختلفاً فى مذاقه ورائحته عن الدنيا .

إذن : فالذى يعمل وفى باله الأسباب فقط يعطى فى الدنيا ، والذى يعمل وفى باله خالق الأسباب يعطى فى الحياتين ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ ... (٣٩) ﴾ [النور]

والسراب الذى تمشى له متخيلاً أنه ماء فإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً ، هكذا الكافر يوم القيامة ، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه الذى لم يؤمن به ، ويطلب من الله الأجر فيقال له : أجرك ممن عملت له . وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر فى الآخرة ؛ لأن الله هو الذى يجزى فى الآخرة .

---

(١) ورد فى هذا حديث عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » أخرجه البزار (٣٥٣٢ - كشف الأستار) . فيه حميد بن عطاء الأعرج . قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٤) : ضعيف . ولكن قال الذهبى فى الميزان (١٣٧/٢) : متروك . فالحديث ضعيف .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ أى: أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب؛ لأن النصيب فى الآخرة يأتى بـ «افعل» و «لا تفعل» فى التكليف، فإذا فعلت الاثنين ترتقى، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب، ولم ينسوا المسبب.. بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب فى «افعل» و «لا تفعل»؛ فملكوا الدنيا ألف سنة. ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسيّاً، فقد بقى دينهم فى نفوسهم، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام. فقد بقى منارة هادية، رغم ضعف المسلمين سياسيّاً.

وقول الحق سبحانه: ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ أى: خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان؛ لأن عمر الفرد فى الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتى من بعدك. وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله. هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام؟ إذن: عمرك فى الدنيا مظنون موقوت، فعملك لأسباب الدنيا محدود المدة، بمقدار عمرك فى الدنيا.

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهى حتماً.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ أى: أنتم تبعتموهم ومشيتم على أثرهم، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً، وهم خاضوا فى الأنبياء، وأنتم خضتم أيضاً فى الأنبياء، فأنتم شركاء الذين ذهبوا من

قبـلكم فى أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم فى الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً . فلكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل . إذن : فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج .

﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أى : فشلت وضاعت أعمالكم فى الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم فى الدنيا وكانوا قسمين : قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً ، وقسماً لم ينله قتل فأفلت بدنياه ، ولكنه خرج منها دون أن يفعل شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً فى الآخرة .

فالذين حبطت أعمالهم فى الدنيا هم الذين قُتلوا وأسروا وشُردوا وغنمت أموالهم بأيدى المؤمنين ، فكأنهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متاعها شيئاً ، وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أى الخسران المحيط بطرفى الزمن ؛ الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق فى الآية السابقة القضية العامة فى قوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ ﴾ جاء فى هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وساعة يقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ فهنا همزة الاستفهام ، ولام النفى. والهمزة تنفى هذا النفي، أى أتاهم نبأ هؤلاء. وحين ينفى النفى فى أمر فالمراد إثبات الأمر ، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى ، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو : « نعم » ، فحين تقول لإنسان: أنت تخليت عنى فى محنتى . فيقول : ألم أزرك فى يوم كذا ؟ ألم أعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شىء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقيّاً.

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ ولم يقل : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ » ، فسبحانه يخاطبهم ترقيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون . وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله ﷺ فى غيبتهم ، فهو ﷺ حريص على هدايتهم.

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والنبأ : هو الخبر الهام . ونحن لا نقول عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من النبوة ، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة ؛ ولذلك فكل شىء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ ﴾ [النبأ]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة.

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التى كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التى تكلم فيها عنهم غَيْباً كقضية خاصة.

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان. وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى رداً على من سخروا من نوح:

﴿ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

أى أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما سوف يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هى من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم.

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أى قوم لوط . ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها. ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ [النجم]

أى: كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم:

﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف]

أى: لتصرفنا عنهم.

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مُؤيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته . وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات فى أول الخلق ؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض فى زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض بحيث إذا وقعت الحادثة فى مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية فى ثوان ، وربما فى نفس الوقت الذى تحدث فيه ؛ إن كان الحادث مُعداً له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر فى نفس اللحظة التى نزل فيها .

وعندما كان العالم يعيش فى انعزال، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتى ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود فى بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد فى بيئة أخرى .

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر فى أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جداً يظهر فى أوروبا أو فى مصر . ولذلك كان لابد أن يأتى رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله ﷺ رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة .

وحين يقول سبحانه: ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فالبينات هى الشىء الذى يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التى صاحبت الرسالات السماوية بيَّنتْ وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها . ولذلك كان كل رسول يأتى بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتى بشىء عجيب ، ولكن لا يُجمع الناس على أنه معجزة ، فعندما اختُرِع الفانوس السحرى ، قال بعض الناس: إنه شىء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لابد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذى لم يقرأ حرفاً فى حياته ؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوى الذى يقضى حياته كلها فى الصحراء ؛ لا يعرف شيئاً ولم يَعِشْ حضارة ولم يدرس علماً .

إذن: فالمعجزات لابد أن تكون واضحة لكل المستويات ؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة . والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لقوانين الكون ولا يمكن أن يأتى به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان.

ويقول الحق عنهم: ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقّاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأىُّ حق ذلك الذى نقلته إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الواجب الإيمان به وعبادته.

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم. وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور [1] ؛ هذا الذى ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى فى عين ذلك الذى شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه فى قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على كل من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقطه فى نظر الناس ، وفى نظر هذا الذى شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه ، فالكل ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار .

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصفَ فيها المنافقون فى قوله تعالى:

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين

(١) عن أبى بكرة قال قال النبى ﷺ: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ (ثلاثاً) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً فقال - : ألا وقول الزور . قال : فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

يمدح محبوبته فيقول:

فالوَجْهُ مثْلُ الصبح مُبيضٌ ... والشَّعْر مثل الليل مُسْودُّ

ضدَّان لما استجمعا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظهر حُسْنه الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحنثهم فيما يحلفون ، وخلفهم فيما يعاهدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات . لكن التقابل هنا اختلف في شيء ؛ لأنه سبحانه قال في المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ، وحين تكلم عن المؤمنين قال :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبنى على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً. وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق ، بل هم يمضون فى تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير . فإن وُجد فى مؤمن شر ؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله فى كل شىء . بل هناك خصلة ضعف فى كل نفس بشرية . فإن وُجدَ فى المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيِّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد فى نقطة ضعفه ،والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويُبصِّره ، وهكذا نجد أنه فى المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر فى نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومَنْ يقصر فى شىء يجد القريب منه ؛وهو يسد الثغرة الطارئة فى سلوكه.

أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لم يبين لنا من المولى ومن الموَالَى ، فكل مؤمن هو ولى وهو موال ؛ لأن الولاية مأخوذة من « يليه » ، أى صار قريباً ، وضدها عاداهُ أى بَعُدَ عنه وتركه . إذن : فالموالاة ضدها العداوة . وفائدة القرب أن يكون الولى نصير أخيه المؤمن فى الأمر الذى هو ضعيف فيه .

فإذا كنت ضعيفاً فى أمر ما ، فأخى المؤمن ينصرنى فيه . وما دام أخى المؤمن ينصرنى فى أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً فى شىء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالَى .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ولو قيل : « وصَّوْا » لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصى أخاه المؤمن . فإن كان عندى نقطة ضعف فأنت توصينى وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن . وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن .

إذن : فكل واحد منا مُوص ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت ولىى ، أى قريب منى تنصرنى فى ضعفى ، وأنا وليُّك ، أى قريب منك ، أنصرك فى ضعفك لأننا أبناء أغيار ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر .

والوَلاية تكون أيضاً فى الحق ، فقد أميل إلى الباطل فى نقطة فيقول لى أخى المؤمن : اعدل . وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل . وهكذا يتكامل الإيمان ؛ ولذلك تجد كلمة الوَلاية بمعنى القرب والنصرة فى قول الحق فى ذاته :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الكهف]

أى : أن النصر الحقيقى والقرب الحقيقى لله ؛ لأننا نعيش فى عالم أغيار ، فقد تطلب النصر عندى فتكون قوتى قد ذهبت ، أو يكون مالى قد فنى ، أو يكون نفوذى قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوى دائماً ، والغنى دائماً ، الذى يُغيِّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقى الدائم لا نصر الأغيار .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس]

أى : أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره . ويقول تعالى:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد]

أى : إذا تقربت إلى الله بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك فى أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية فى الأصل هى القرب والتناصر ، ومادام هناك تناصر فلابد أن تكون هناك نقطة ضعف فى مؤمن ، ونقطة قوة فى مؤمن آخر ،

ولكن مَن الذى سيكون فى ضعف دائماً ، أو فى قوة دائماً ؟ لا أحد . إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يعين البعض ؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكى يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾
[الزخرف]

إذن : فقد اعترف الكفار بصدق القرآن وإعجازه ولكنهم لا يؤمنون ؛ لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ، ولم ينزل على أحد من زعماء قريش ، فيرد الله سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (٣٢) ﴾
[الزخرف]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم السادة والعبيد ، ويجعل منكم الأغنياء والفقراء ، وذلك فى أمور الدنيا ، فإن كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذى قسمها بينكم ، وحياتكم فى الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التى هى حق لله سبحانه وتعالى وحده .

ونلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾

مبهمة ، فإن كلاً منا مرفوع ومرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب . ولكن كلاً منا متميز فى ناحية وغير متميز فى ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم فى الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان مرفوعاً عليه فى شىء فلابد أن يسأل نفسه : فى أى الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفى أى الأشياء الناس أحسن منى ؟

ونقول له : أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن فى باقى الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا فى الشىء الذى لا أجيده مرفوع علىّ ، وفى الشىء الذى أجيده مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد فى كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض ﴾ .

ولكن الآفة أننا لا ننظر فى الرفعة إلا إلى مجال واحد ؛ هذا غنى وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة فى الحياة ، وزوايا كثيرة ، وبعضنا إذا أخذ درجة عالية فى زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً فى زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان فى نهاية الأمر يساوى مجموع أى إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك فى شىء ، فإياك أن تحسده ، ولكن اسأل نفسك فى أى مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك .

إذن : فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولابد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه

لنفسه . انظر إلى النجار مثلاً تجده يتقن عمل الأبواب والنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب الذى يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذى لا يتقاضى عليه أجراً.

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس نجد أن اليد اليمنى تؤدى الأعمال بسهولة ، واليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر فى قَصِّ أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة . بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوى مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهى يتدخل هنا ، فنجد - على سبيل المثال - الرجل الغنى الذى يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، ثم يأتى عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . وتجد من يسرف فى الطعام ؛ لابد أن يأتى عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ؛ لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته فى أن يُحرم . والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع ؛ لكى يلتحم الجميع . فأنت تحتاج لى فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم.

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا أصحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذى يعالج المريض ؟ ومن الذى يحفر الأرض ؟ ومن الذى يحمل الطوب ؟ ومن الذى ينظف الطريق ؟ إننا لو تشابهنا فى الموهبة

أو الثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لابد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لى . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضَى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتفضل بين الناس .

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم: ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فإذا فعل مؤمن منكراً ؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف . وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهى عن منكر .

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو وأنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون فى يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التى فى يده ، لايمكن إذن أن تنهى عن منكر وأنت تفعله ؛ والذى يأمر بمعروف لابد أن يكون فاعله ، والذى ينهى عن المنكر لابد أن يكون بعيداً عنه [1] . فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف. وناهٍ عن المنكر .

ويضيف الحق وصفاً للمؤمنين : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وإقامة الصلاة هى إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ،ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولى الأعلى الذى لا نستغنى عنه جميعاً.

(١) عن أسامة بن زيد قال ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩) . أقتاب البطن : أمعاؤها .

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا:

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ... ⑦ ﴾ [محمد]

إذن . فلابد أن نتجه جميعاً إلى الوالي[1] الكبير . فهو سبحانه فوق أسبابنا ، وفوق قوتنا وهو الذي ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فنلجأ للولي الكبير . وما دامت الولاية لله الحق فلابد أن نستديم في ولائنا له سبحانه وتعالى . واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة . وساعة تسمع المؤذن يقول : « الله أكبر » تسرع إلى الصلاة . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة ، فلابد أن تجيب الدعوة[2] .

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون في معية الله دائماً فافعل ، بعد أن تكون قد أدَّيتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات في اليوم الواحد ، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففي هذا صلاح الإنسان . وأنت إنْ جئتَ بأي آلة وجعلتَ المهندس الذي صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً.

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه . والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان باكتشاف نقص في الوصلات الكهربية أو كسر في أي شيء ، فالمادة تصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه

(١) الوالي : من أسماء الله عز وجل : وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها . قال ابن الأثير : وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل .

(٢) عن أبي هريرة قال : أتى النبي ﷺ رجل أعمى . فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد . فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له فيصلي في بيته . فرخص له . فلما ولى دعاه فقال : « هل تسمع النداء بالصلاة ؟ » فقال : نعم . قال : « فأجب ». أخرجه مسلم في صحيحه (٦٥٣) .

غيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلى . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر - أى كان هذا الأمر فوق طاقته - قام إلى الصلاة [1] ؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى يملك الحل . ولذلك كان ﷺ يقول لبلال : أرحنا بها يا بلال [2] كأن الراحة بها ، أى : اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة .

لذلك كان لابد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ لأن الصلاة استدامة الولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات فى اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت .

ولكى تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شىء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . . فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . . فإذا قلت : إنك ستتكلم فى كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له فى أى وقت تشاء ، وفى أى مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لاينهى المقابلة أبداً ، أنت الذى تنهى المقابلة مع ربك .

(١) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

ويقول رسول الله ﷺ : « لايمل الله حتى تملوا »[(١)].

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده فى وقت واحد ، ويستمع إليهم فى وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون فى وقت واحد.

ويقول سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والصلاة تأتى مع الزكاة باستمرار ؛ لأن فى الصلاة استدامة ولاء لله المعطى ، وفى الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه لتستبقى له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتى بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن : فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفى الصلاة ضحيت بوقتك فى أوقات محددة.

وفى الأوقات التى تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذى سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلاة ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ﴾ ؟

نقول: الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهى : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٣) ومسلم فى صحيحه (٧٨٥) من حديث عائشة رضى الله عنها.

رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، هذه الأركان ليست هى كل الإسلام . بل هى القواعد التى بُنى عليها الإسلام ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « بنى الإسلام على خمس »[1] . إذن : فهذه هى الأعمدة أو الأسس التى بُنى عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة فى الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقى ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التى وضعت ، ولكن لابد من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به فى كل حركة الحياة.

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشىء الذى تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهى وضع خميرة فى عجينة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل ، والذى بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة فى العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء. فالنسلين - على سبيل المثال - اكتُشف نتيجة خطأ. وقاعدة أرشميدس التى بنيت عليها نظرية الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس. وحين يأتى ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدى خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم.

ومثال آخر : ما الذى جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذى جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى . كل هذا هدانا إليه الله .

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى]

إذن : فكل ما ننتفع به فى حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت ؛ ولذلك من يأتى ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿ وما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ۝٥٦ ﴾ [الذاريات]

نقول : سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط . ولكنك لكى تصلى ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلى وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتى بهذا الرغيف ؟ من البقال . ومن أين أتى به البقال ؟ من المخبز . ومن أين جاء المخبز بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح ؟ من المزارع . والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكى يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكى يسقى .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدْتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة فى الحياة تعينك على أداء العبادة هى عبادة .

ومثال آخر : لكى تصلى لابد أن تستر عورتك فى الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتى به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع النسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويقى القطن من الآفات . كل هذه هى من حركات الحياة التى مكَّنْتكَ أن تستر عورتك فى الصلاة، وكل منها عبادة.

إذن : كان من الضرورى أن يقول ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . بعد ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله فى الإسلام الذى بنى على هذه الأركان .

ثم يقول الحق : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ : أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لأن السين تهتك ستار الزمن ؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً فى رحمة الله التى لا تنقطع .

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَـٰنُ وُدًّا (٩٦) ﴾ [مريم]

أى أن الود سيكون مستمراً ، حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً ينتفع بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء بـ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ لترى عطاء الحق مستمراً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول : سأنتقم منك ، أى : أن الانتقام سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ تعطى أن صفة الرحمة فى حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة فى المخلوق [1] ؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التى لا تتناهى ولا تنتهى. ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ... (٨٢) ﴾ [الإسراء]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التى تُشْقى الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر. وهناك سلامة ليست من أول الأمر. ومن عنده خصلة سيئة – وهى داء – يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهى ألا يأتى داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم . لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، تغريه عزته أن يطغى . لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية.

ويأتى بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم فى الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها ، خشية أن تصيبه». متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٠) ومسلم فى صحيحه (٢٧٥٢).

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾

والوعد: بشارة بخير يأتى زمانه بعد الكلام. والوعيد: إنذار بسوء يأتى بعد الكلام.

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل؛ حتى يتحقق له الخير الذى وُعد به. والوعيد يعطى السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ ثم ذكر العذاب الذى ينتظرهم، وبعد ذلك قال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ثم وصف النعيم الذى ينتظرهم، مع أن الشائع فى اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر، فكان من المناسب فى عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : « أوعد الله المنافقين »؛ لأن الذى سيأتى بعد ذلك عذاب ونار وشر، وأن يقول فى المؤمنين : وَعَدَ اللَّهُ لأن الذى سيأتى بعد ذلك جنة ونعيم وخير.

ولكن الأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشرى، فجاء بكلمة « وعد »، وهى تقال دائماً للخير فى حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين،

واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشرى ؛ لأنه وعد بخير.

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة « وعد » مكان « أوعد ».

فالذى يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تَقسْ كلام الله على كلام البشر ؛ لأن البشر يفوتهم فى كلامهم ملاحظ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون فى الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد.

فلماذا جاء سبحانه - إذن - بكلمة « وعد » بدلاً من « أوعد » ؟ نقول: إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جزائهم إن أصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذى ينتظرهم ؛ عَلَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل فى دروسه : سترسب إذا أهملت دروسك . فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة . وأوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذى أوعد به ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: **﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾** أى : فبأى نعم ربك تكذب ؟ نقول : نعم إنه نعمة ؛ لأن

الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك: إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة .

إذن: فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذى ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إن اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفى هذا خير عميم . ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة « وعد » ولم يستخدم « أوعد » ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذى أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وعد اللهُ المؤْمنين والْمؤْمنات ﴾ والوعد كما قلنا بشارة بخير مستقبلى ، والوعيد إنذار بشرٍ يأتى فى المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصلوا إلى الخير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله ؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ؛ استقام ميزان الحياة.

ولذلك نقول للذى يذاكر : إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذى يؤهلك لدخول الكلية التى تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وفُصلْتَ من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد. إن وفَّيْتَ ما وعدت ووفيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة . ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم.

وإن وعدت من يحصل على ٩٠٪ مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على ٧٠٪ واستُبعدَ الحاصل على ٩٠٪ بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد فى حركة الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لايكون لكلامه وزن فى حركة الحياة.

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ؛ لأننا أهل أغيار ، فقد أعد بخير لا أستطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن : فلكى تستقيم حركة الحياة ، لابد أن يأتى الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوى دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شىء يمكن أن يجعله لا يفى بوعده أو لا يُتِمُّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

[المسد]

وقد حكم الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعمرو بن العاص [1] وغيرهم ؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم وجاهدوا فى سبيل

(١) أسلم خالد بن الوليد فى العام السابع من الهجرة بعد غزوة خيبر . أما عكرمة فقد أسلم عام فتح مكة سنة ٨ هـ . أما عمرو بن العاص فقد أسلم قبل الفتح فى صفر سنة ٨ هـ. انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (٢/ ٩٨) ، (٤/ ٢٥٨)، (٥/ ٢).

الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ نقول: إن هذا ليس حكم رسول الله ﷺ ، ولكنه حكم الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشُكَّ فى هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شئ قدير .

لذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها فى المصحف الشريف فى سورة الإخلاص:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② ﴾ [الإخلاص]

وما دام الله أحداً فأمره نافذ حتى فى الأمور الاختيارية فى الحياة ، فإذا قال الله : ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ . وإذا وعد بخير فإنه سيأتى لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً .

إذن : فلكى تستقيم موازين الحياة ، كان لابد أن يأتى الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأنه لا أحد يشارك الله فى مُلْكه ، ولا يوجد قوى إلا الله ، ولا غالب إلا الله ؛ لأنه هو الله أحد .

وقد يأتى الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريَّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهى لا تعطيك شيئاً .

إذن : فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذى يجدُّ فى زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذى لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه

لا يحصل على ثمرة واحدة منها . ولو اختلف الأمر ووجدنا من زرع وحرث وسقى لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير فى الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه.

إذن : فلكى تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير . وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا فى كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها . فالذى يجتهد ينجح ، والذى لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميزان الحياة . ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر ينجح ومن يذاكر يرسب ؛ اختلت حركة الحياة المثمرة الناجحة.

إذن : فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد ؛ أى كوفىء الذى لا يعمل وعوقب الذى يعمل فسد الكون . لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب النفع لنفسه ، ولا يختلف فى ذلك مؤمن أو عاص أو كافر ، ولكن العاصى والكافر يحبان نفسيهما حبّاً أحمق ؛ فيحققانٌ لها نفعاً قليلاً زمنه محدود ؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود . أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر ؛ لذلك فهو حرم نفسه من متعة عاجلة فى زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر فى زمن لا ينتهى.

ولقد ضربنا مثلاً لذلك - ولله المثل الأعلى - فقلنا : هَبْ أن هناك أخوين : أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلى ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه . والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ،

فيخرج ليتسكع فى الشوارع ، وحين تُحدِّثه نفسه بأى متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة.

إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة فى سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثانى فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوى شيئاً فى المجتمع.

إذن : فكل منا يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هى التى تختلف. فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيتحمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومنا من يعطى نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً.

والعجيب أنك تجد أن هذه هى سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح فى حياته إلا إذا كان قد أجهد نفسه فى سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة فى أولها ليشقى بقية عمره.

لذلك يقال دائماً : إنه لا [illegible] جد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذى يتعب فى أول حيات[illegible] [illegible]رتاح بقية عمره ، والذى يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره . والمثل الش[illegible]ع يقول : من جار على شبابه ، أى : ضيَّعه فيما لا يفيد ؛ جارت علي[illegible] شيخوخته . والقائمون على الأمر عليهم أن ينبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة . ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع. وعلى كل ولى أمر ؛ فى أى مكان ؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أبنائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر

حتى ينجح ، بل لابد من الوعد لكى يتم الاجتهاد . ولابد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننتظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يَزِنَانِ حركة الحياة.

ولكن إذا رأينا فى مجتمع ما أن الذى يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذى لا يعمل يأخذ كل شىء ، نعرف أن مقاييس العمل قد اختلت. وأن المتاعب قد بدأت فى المجتمع ؛ لأن الذى يعمل حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شىء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله فى النفاق والرياء ، وقَلْب الحقائق وإرضاء الذى يملك الأمر . وتكون النتيجة هى فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً فى النفاق والرياء وضياع الحق.

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة فى الوعد والوعيد ؛ فلا تُعْط حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجتهد ؛ ولكنك إذا بعثرت الحوافزَ على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك فى بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذى يعمل فى جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة فى المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هى حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أنجز مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه، فإنْ أضعْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذى خسر.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف - ومعنى الكهف مغارة فى جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف - حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن

ذى القرنين قال :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

فما هو الذكر الذى يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يُدخلَ نفسه فى متاهة بالسؤال عمَّنْ يكون ذو القرنين . هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نلتفت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله فى الأرض [1] . وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله فى الأرض ؛ فى أى زمان ، وفى أى مكان. ومهمة من يمكنه الله فى الأرض ألا يكتفى بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾

[الكهف]

مهمته - إذن - أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن فى الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفى هذا

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠١) : « قوله ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ﴾ أى : أعطيناه مُلكاً عظيماً مُمكَّنا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد؛ وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها ».

إصلاح لحركة الحياة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيشون فساداً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد فى المجتمع لا يصيب المفسد فقط . ولكن يكتوى به المجتمع كله .

إذن : فلا بد أن نُعجِّل لهم بالعقوبة فى الدنيا ، لنحمى المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله فى الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح فى المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلابد أن نجازيه خيراً ونشجعه. هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هى معاييره .

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أمّا التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول : " إن شاء الله " حين تعد بشيء لتكون صادقاً. ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ [الكهف]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و: إن شاء الله سأفعل كذا فى العام القادم ؛ لأن الذى تَعِدُ به ، قد يأتى وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله .

فإذا قلت – مثلاً – لإنسان : ستقابل غداً فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها ونتكلم فى موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد ؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد ؟ أو أملك أن يظل سبب اللقاء موجوداً ؟ يجوز أنى كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ، وجاءنى مال فى أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيى .

إذن : فساعة تقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله" ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل . فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل .

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كى تفعله ، وقد يتغير السبب .

إذن : فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذى يملك أن يبقيك لغد ، أو يُبقى السبب أو يُبقى القدرة هو الله ، إذن : فكل شئ نقوله لا بد أن نقول : "إن شاء الله" ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذى يملك عناصر الفعل .

ولكن إذا كان الذى وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد .

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم . فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتى قوله تعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب.

إذن : فعندنا جنات ، وهى لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أى مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب فى هذه المساكن ؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص فى هذا المكان مأوى طيباً خاصّاً به .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى : ليس فيها ما يسيء أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة "جنة" هى المكان الذى فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ "الجنة" على بساتين الأرض ، فقال :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ... (٢٦٦)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً :

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... (١٧)﴾ [القلم]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة فى الآخرة ؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول : الوجود المعروف فى الكون هو الوجود الذى تراه أو تسمعه ، وفى هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك ستسمع الذى رآه غيرك حين يقصه عليك . إذن : فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك . فأنت إذا قلت : إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك . وأما الأشياء التى لا تخطر على بال بشر ، فهى أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

والكلمات توضع لمعانٍ معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعان مرت على العين ، أو مرتٍ على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أنَّ يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك فى اللغة ما يعبر عن شىء غير موجود . ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشىء . وهذه مهمة المجامع اللغوية فى العالم . فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء .

ولكن الجنة فى الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما فى جنة الآخرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك " ولا خطر على قلب بشر " تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما فى جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التى وعد بها المتقين فهو يوضح : أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما فى جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وإنما يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ... (١٥) ﴾ [محمد]

أى : أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود فى الجنة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ و ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع "جنة" . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) ﴾ [الأنعام]

يعنى : ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كبرت ونمت وترعرعت . بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً فى كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها ؛ لأن فيها كل مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيرها من النعم التى أنعم الله بها عليه .



طبعت بمطابع دار أخبار اليوم